

سماحة المرجع الشيرازي دام ظله

تخلف المسلمين سببه عدم العمل بالقرآن الكريم



القبلة ليدفن

إزاء محراب الإمام عليه

السلام. وقبيل السحر قام الحسنان

عليهما السلام برفع مؤخرة التابوت الذي كان فيه الإمام عليه السلام فارتفعت مقدمة التابوت أيضاً، فقد روي أن الإمام عليه السلام كان قد أخبرهما أن جبرئيل وميكائيل سيحملان التابوت من أمام. وجيء بالتابوت إلى حيث مرقد الإمام عليه السلام وكان يسمى نجف الكوفة. فالنجف يعني الأرض المرتفعة، إذ كانت هناك هضبة دفن عندها جثمان الإمام عليه السلام وبقي أكثر من ستين سنة لا يزوره إلا الأنبياء والملائكة، وربما الأئمة عليهم السلام بطي الأرض.

وقد أخفى الحسنان عليهما السلام قبر الإمام سلام الله عليه، كي لا يتعرض لاعتداء بني أمية الذين كانوا يضمرون العداة للإمام عليه السلام، ولم يكن مقدراً أن يحافظ عليه عن طريق الإعجاز، فإن مشيئة الله تعالى لا تتعلّق بالمعجزة دائماً، إذ لو كان كل شيء يريد الله يتحقق بالإعجاز لانتفى الامتحان.

وهكذا بقي قبر الإمام عليه السلام طيلة هذه المدة مخفياً لا يعلم به سوى الأئمة عليهم السلام وربما بعض الخواص، طيلة هذه المدة، لم يكشف عنه لغير المعصوم حتى أبعد المنصور الدوانيقي، الإمام الصادق عليه السلام إلى الحيرة، وكان في مسيره مع صفوان فأخبره بموضع قبر الإمام عليه السلام.

وكان الإمام عليه السلام قد خطب بعد جرحه

وقبيل استشهاده أي في الليلة التي

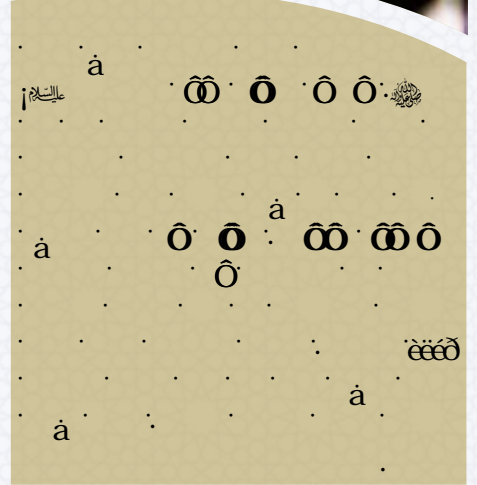
قضى فيها خطبة، قال في مطلعها إنه يوجّه خطابها هذا إلى كل من بلغه، فتحن أيضاً مخاطبون به وهكذا الأجيال التي تليها وفي كل الأعصار والأمصار.

لقد وجّه الإمام عليه السلام خطابها هذا في وقت كان رأسه المبارك قد فُلق بذلك السيف المسموم وكانت الضربة الغادرة قد بلغت الدماغ ونزف دماً كثيراً حتى أن الأصبغ بن نباته عندما رآه وكان رأسه المبارك مشدوداً بعصابة صفراء قال: لم أدر أيهما أشد اصفراراً، العصابة أم وجهه؟ ولكن الإمام عليه السلام وهو في تلك الحالة خطب هذه الخطبة التي وجّهها بصورة صريحة إلى كل الأجيال، وإن كانت كلماته عليه السلام كلّها عالمية، وهكذا كلمات سائر الأئمة المعصومين عليهم السلام ولكن الإمام في هذه الخطبة أعلن وصرّح بذلك.

قال الإمام عليه السلام في هذه الخطبة: «اللهم الله في القرآن» أي تمسكوا به، والتزموا بما فيه، ولا تغفلوا عنه، ولا تفرطوا به، واعملوا به وخذوا منه منهاجكم في الحياة كلها وفي جميع الأبعاد.

وعقّب الإمام عليه السلام على هذه الجملة بعبارة فريدة حيث قال: «لا يسبقكم بالعمل به غيركم».

أي حذار أن تتخلفوا في هذا المجال فيسبقكم



أعزّيكم بذكري استشهاده الإمام أمير المؤمنين سلام الله عليه، وأسأل الله تعالى أن يتقبل من الجميع الطاعات والعبادات والخدمات، وأن يرضى مولانا الإمام المهدي صلوات الله عليه وعجل الله تعالى فرجه الشريف عنا وأن يرعانا برعايته، وأن تشفع كريمة أهل البيت فاطمة المعصومة عليها السلام لقضاء جميع الحوائج.

لقد رحل الإمام أمير المؤمنين سلام الله عليه، وشارك الحياة الدنيا في أواسط ليلة الواحد والعشرين من شهر رمضان المبارك وهيأ الحسنان سلام الله عليهما حوالي عشرة نعوش وضعوا أحدها على البعير وأرسله إلى المدينة، والآخر إلى الحيرة، وآخر إلى قرب مسجد السهلة، وآخر خلف مسجد الكوفة خارج المسجد عند

الأخرون ويتقدموا عليكم. فإنَّ المقصود بقوله «غيرهم» غير المسلمين بالطبع، أي عبدة الأوثان، وعبدة الشمس والبحر، ومن يزعمون أنهم من أتباع النبي موسى أو أتباع النبي عيسى عليهما السلام، أو الذين لا عقيدة لهم من الملاحدة.

فحذار أن يعمل أولئك بأية من القرآن قبل أن تعملوا بها فيسبقوكم، فيسعدوا ويتقدموا، وتبقوا أنتم على ما أنتم عليه متخلفين في الحياة، وتكون في بلادهم الحريات ولا يلجأ منها حتى شخص واحد إلى بلادكم، ولا يجد حاجة لأن يهرب من بلده، وتكون بلادكم مصدرًا لللاجئين. وما ذاك إلا لعلهم - وهم غير مسلمين - بمضامين آيات القرآن الكريم وتخلفكم - وأنتم مسلمون - عن العمل بها.

فجّل اللاجئين في دول العالم - مع الأسف - من البلدان الإسلامية. فليحكم وبالأخص أنتم الشباب من أتباع الإمام علي عليه السلام أن تصفوا بقلوبكم لما يقوله لكم الإمام عليه السلام، لتعملوا على تغيير وضعكم، وتصبحوا أنتم السابقين في مضمار الحياة بسبقكم بالعمل بالقرآن الكريم.

لقد كان الإمام عليه السلام وهو يوجّه خطابه يومذاك، أي قبل زهاء أربعة عشر قرناً، ينظر إلى المستقبل، إلى واقعنا هذا، وحياتنا هذه، فيحذّرنا وينبّهنا إلى أنّ ترك العمل بالقرآن يعني التخلف عن ركب الحياة في جميع المجالات.

فمثلاً يعمل غيرنا - إلى حدّ ما - بمضمون آية في المجال الاقتصادي، ولا نعمل نحن، فيتقدمون علينا، ثم نركض خلفهم، لنأخذ منهم أو نفتقئ أثرهم، وعندنا القرآن لا نعمل به وفيه كلّ أسباب التقدم والسعادة.

إنّ الواقع مؤلم حقّاً، فلنكن يقظين أكثر، فإنّ المشكلات التي يعاني منها المسلمون متزايدة، فهي اليوم أكثر منها قبل عقد، وفي هذا القرن أكثر منها في القرن السابق، وهكذا.

فلماذا نرى الآخرين الذين لا يعتقدون بالقرآن ولا يسمّون أنفسهم مسلمين، يعملون بمضامين القرآن ويبلغون السعادة بنسبة العمل بتلك المضامين، ولا نعمل بها نحن الذين نسمّي أنفسنا مسلمين؟!

إنّ المعاني والمضامين التي يحملها القرآن الكريم هي التي تمنح السعادة. فمع أنّ الآخرين لا يعتقدون بالقرآن وليس الباعث على عملهم بتلك المضامين لكونها قرآنية، ورغم كل السيئات الموجودة عندهم، يستفيدون من عملهم إذا كان منطبقاً مع مضمون قرآني وتنعكس

آثاره الإيجابية على حياتهم، بنفس نسبة عملهم وانطباقه مع المضمون القرآني.

لا بأس في هذه المناسبة أن أذكر في هذا المجال مثلاً من مئات الأمثلة. لقد حكم الإمام أمير المؤمنين عليه السلام زهاء خمس سنوات حكومة لا أقول قلّ نظيرها بل انعدم نظيرها من حيث المشكلات الخارجية والداخلية.

ولكن رغم قصر المدة التي حكم فيها الامام وكلّ تلك المشكلات، فإنّ ما تلالأت فيها من مئات النقاط المضيئة من أقوال الإمام عليه السلام وأفعاله خلال هذه المدة جعلتها مميّزة عبر التاريخ من كل جهة.

وهذا الموضوع يمكن أن يكون مفتاحاً لكتابة مئات الكتب سواء تلك النقاط المضيئة التي قلّ نظيرها أو انعدم نظيرها في التاريخ.

المثال الذي أودّ ذكره يتعلّق بالجانب الاقتصادي. والاقتصاد مسألة مهمة كانت ومازالت. فبالمال تدعم مشاريع الخير وبالمال تستعين قوى الشر لنشر الرذيلة. ويوم نقد مال خديجة عليها السلام اضطرّ النبي صلى الله عليه وآله للجوء لشعب أبي طالب عليه السلام وإن

وبعد انتهاء الحرب بدأ اليابانيون ببناء بلدهم، وكان أحد الأعمال التي قاموا بها أنهم عملوا بهذين السطرين اللذين جاء في عهد الإمام عليه عليه السلام إلى واليه حين ولاء مصر.

طبعاً هم لم يقولوا إننا طبقنا مقولة الإمام علي عليه السلام، ولكن المهم أنهم عملوا بمضمون ذينك السطرين من كلام الإمام عليه السلام. وربما كان بعضهم اطلع على العهد وعملوا بما جاء به - في ذلك الخصوص - ولكنهم لم يشأوا أن يظهروا ذلك، وحبذا لو سعى الباحثون الشباب لاكتشاف هذا الأمر.

هذان السطران يتعلّقان بالاستيراد والتصدير، وقد كتبوا أنّ اليابان إثر خطتها في الاستيراد والتصدير تطوّرت إلى درجة بحيث توقّفت حتى في داخل أمريكا نفسها على الاقتصاد الأمريكي خلال العقود الأخيرة، وربما قرأ بعضكم ذلك.

ولقد اضطرت أمريكا إثر ذلك إلى تشريع قانون يحفظ اعتبارها وذلك بتحديد البضائع اليابانية خلافاً للقانون العام الأمريكي، الذي لا يوجد فيه هذا التحديد إزاء أية دولة.

فما الذي عملته اليابان بحيث حققت هذا الطفرة واستطاعت أن تتفوق في اقتصادها على أمريكا في داخل أمريكا نفسها، رغم الإمكانيات المادية الهائلة لأمريكا وسيطرتها السياسية على العالم؟

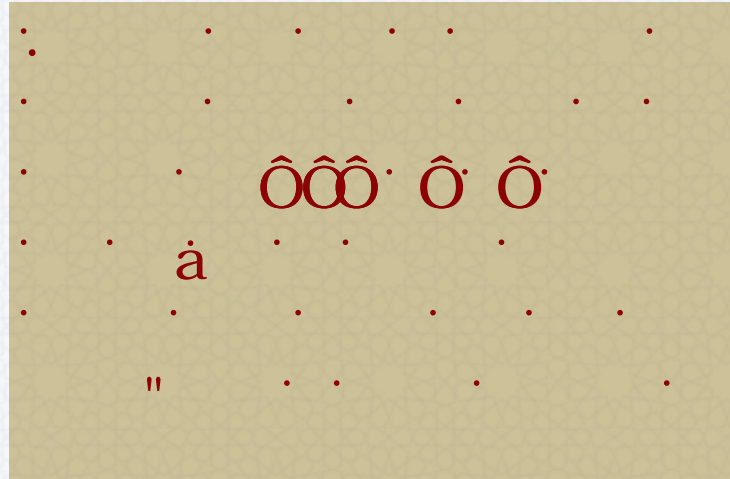
لقد قامت بتطبيق سطرين مما جاء في عهد الإمام، فما الذي كتبه الإمام؟ لقد طلب الإمام عليه السلام منه أن يدع شأن الاستيراد والتصدير للتجار لا تتدخل فيه الدولة، بل يكون حرّاً ولا تقوم الدولة فيه إلا بدور الإشراف، قال عليه السلام:

«ثم استوص بالتجار وذوي الصناعات وأوص بهم خيراً..»

فإنهم سلم لا تخاف بانقته وصلح لا تخشى غائلته. وتفقّد أمورهم بحضرتك وفي حواشي بلادك»^٢.

وقد بيّن الإمام عليه السلام السبب أيضاً، فقال: «فإنهم - أي التجار - موادّ المنافع وأسباب المرافق، وجلابها من المبادئ والمطاح في برّك وسهلك وجبلك وحيث لا يلتئم الناس لمواضعها ولا يجترئون عليها».

أي أنّ التاجر بطبعه يبحث عن الربح، ولغرض تأمين الربح تراه يجدّ من أجل توفير احتياجات الناس فلو تركناه حرّاً فإنه سيوفّر احتياجات الشعب، فيأتي لك في الصيف ما يحتاج الناس في الشتاء ويهيئ في الشتاء ما يحتاجونه في الصيف.



لم يتوقّف دعم الله له على كل حال وواصل جهاده المبارك واستمرت رسالته الشريفة.

لقد كان للإمام أمير المؤمنين عليه السلام والي على مصر. وكانت أكبر من هذا اليوم - فكتب له الإمام عهداً، وهذا العهد مشهور، جاء فيه سطران عن التجارة، قبل أن أبينها أذكر لكم قضية.

في الحرب العالمية الثانية كانت اليابان من الدول التي أصابها الدمار كثيراً ودمّر اقتصادها، وكانت هناك دولة أخرى - من الدول الإسلامية - دمّرت أيضاً ودمّرت اقتصادها. أي كانت هناك دولتان تضررتا أكثر من سائر الدول، إحداهما اليابان، والأخرى دولة إسلامية لا أريد أن أذكر اسمها الآن، واليابان كان دمارها أكثر.



كل يوم؟! فلماذا هذه الأوضاع؟ إلا بسبب الابتعاد عن القرآن الكريم سواء من الذين لا يعتقدون به أو الذين يزعمون الإيمان به.

فهلما لكي نعمل بالقرآن نحن الذين نتنسب إليه، ولندع العالم أيضاً للإيمان به والعمل بمضامينه لنزيل هذا الركاب من المشاكل والمصائب.

هل قرأتم أن شخصاً واحداً مات بسبب الجوع في زمن حكومة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام؟ هذا مع كثرة أعداء الإمام عليه السلام الذين كانوا يبحثون عن أصغر نقطة ضعف على الإمام عليه السلام ليضعّموها وليطبلوا لها، ولكننا مع هذا لم نسمع ولم نقرأ شيئاً من هذا القبيل يحدث في حكومة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، ولم نسمع أية منقصة فيه، حتى أن أعداءه حين عجزوا عن إيجاد منقصة فيه ذكروا مناقبة كمثالب، فرأوا مثلاً أنه لا يصلح للخلافة لأنه ليس عيوساً ولا فظاً غليظ القلب، وقال قائلهم: لولا دعابة فيه!

فلو كان شخص واحد قد مات من الجوع في حكومة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام لدوخوا الدنيا بها، ولكنهم حيث لم يجدوا سكتوا. أجل مات شخص من الجوع ولكن في ظل حكومة عثمان لا حكومة الإمام عليه السلام.

فاسعوا أن تكونوا ممن ينتصر الله به لدينه، وكذلك على أن تظلوا مستقيمين عليه، لا أن تصل النبوة إلى الاستبدال، إذ ما أكثر الذين استبدلهم الله تعالى بغيرهم لأنهم لم يكونوا لائقين.

كان عبيد الله بن الحر الجعفي من أصحاب الإمام أمير المؤمنين عليه السلام وله نسخة من أمير المؤمنين، أي كتاب روى فيه ما سمعه من الإمام عليه السلام، ورواها الرواة بعد ذلك، وكان زهير بن القين عثمانياً أي ناصبياً منحرفاً عن أهل البيت عليهم السلام.

لقد التقى الإمام الحسين عليه السلام في مسيره إلى كربلاء عبيد الله الجعفي ودعاه إلى نصرته فاعتذر قائلاً: أعطيك سيفي وفرسي، ورفض ذلك الإمام عليه السلام فأبدله الله تعالى بزهير بن القين الذي كان منحرفاً عن خط أهل البيت في بداية أمره ولكنه استجاب لدعوة الإمام حين التقاه في نفس المسير.

وندم الجعفي بعد ذلك وابتلي بالسلطين والحكام وهموا باعتقاله، فألقى بنفسه في الماء وغرق. فخسر الدنيا والآخرة، أما عاقبة زهير فبلفت حيث يخاطب في الزيارة: السلام عليكم أيها الصديقون.

والصديق مرتبة عظيمة جداً، فإن الامام الكاظم عليه السلام يقول عن جدته الزهراء عليها السلام:

صديقة شهيدة.

ولا شك أن للصدقية مراتب، فمرتبة شهداء كربلاء لا تبلغ مرتبة الصديقة الزهراء عليها السلام، ولكن زهير بن القين - على أي حال - وهكذا سائر أصحاب الإمام الحسين عليه السلام بلغوا مرتبة أمر الأئمة شيعتهم بأن يزورهم بهذه العبارات العظيمة. فلنكن يقظين حذرين ولنحذر من إبدال الله تعالى، فهو يحدث بسرعة وبصورة اعجازية مذهبة.

أسأل الله تعالى ببركة هذا الشهر العزيز أن يوفّقكم جميعاً وأن تزيدوا من خدماتكم وفي مختلف الأبعاد، ليمكنكم الاستفادة وجميع الأبعاد من قول الامام علي عليه السلام: «لا يسبقكم بالعمل به غيركم»، وصلى الله على محمد وآله الطاهرين.

١. نهج البلاغة/ باب الكتب/ الكتاب ٤٧ من وصيته صلوات الله عليه للحسن والحسين سلام الله عليهما/ ص ٤٢١.
٢. المصدر نفسه/ الكتاب ٥٢ كتاب له صلوات الله عليه لمالك الدشتر النخعي رضوان الله عليه/ ص ٤٢٦.